باب البُومِ والغِرْبَانِ

قال دَبْشَليمُ المَلِكُ لِبَيْدَبا الفيْلَسوفِ: قدْ سَمِعْتُ مَثَلَ إخوانِ الصَّفاءِ وتَعاوُنِهِمْ، فاضرِبْ لي مثَلَ العدُوِّ الذي لا يَنبغي أنْ يُغتَرَّ بهِ وإنْ أظْهَرَ تضرُّعاً ومَلَقاً. قال الفيلَسوفُ: مَنِ اغترَّ بالعَدُوِّ الذي لا يَزال عدوًّا أصابَهُ ما أصَابَ البُومَ منَ الغِرْبانِ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

قال بَيْدَبا: زعَمُوا أنهُ كانَ في جَبلٍ منَ الجِبالِ شجرَةٌ منْ شجرِ الدَّوْحِ[1] فيها وَكْرُ ألْفِ غُرابٍ وعليْهِنَّ والٍ منْ أنفُسِهِنّ، وكانَ عندَ هذهِ الشجرَةِ كهْفٌ فيهِ ألْفُ بُومةٍ وعليْهِنَّ والٍ منهنَّ. فخرَجَ مِلكُ البُومِ لبعْضِ غَدَواتِه ورَوْحاتِه[2] وفي نفْسهِ العَداوةُ لمِلكِ الغِرْبانِ، وفي نفْسِ الغِرْبانِ ومَلِكِها مثْلُ ذلكَ للبُومِ، فأغارَ ملكُ البومُ في أصْحابهِ على الغِرْبانِ في أوْكارِها فقَتَلَ وسَبَى منها خَلْقاً كثيراً وكانتِ الْغارَةُ ليْلاً فلمَّا أصبَحَتِ الغِرْبانُ اجْتمَعَتْ إلى ملِكِها فقُلْنَ له: قدْ عَلِمْتَ ما لَقِينا الليْلَة منْ مِلكِ البُومِ وما مِنَّا إلاَّ منْ أصْبَحَ قَتِيلاً أوْ جَريحاً أوْ مكْسورَ الجَناحِ أوْ مَنْتوفَ الرِّيشِ أو مَقْطوفَ الذَّنَبِ، وأشَدُّ ممَّا أصابَنا ضَرًّا جُرْأتُهنَّ علينا وعلْمُهُنَّ بمكانِنا وهُنَّ عائدَاتٌ إلَيْنا غيرُ مُنْقطِعاتٍ عنّا لِعلْمِهِنَّ بمكانِنا فإنما نحْنُ لكَ أيُّها الملِكُ! ولكَ الرَّأيُ، فانظُرْ لنا ولِنفْسِكَ وكانَ في الغِرْبانِ خمسةٌ مُعترَفٌ لهنَّ بحسْنِ الرَّأيِ يُسْتَنَدُ إلَيْهِنَّ في الأُمُورِ وتُلْقَى إلَيْهِنَّ أزِمَّةُ الأحوالِ، وكانَ الملِكُ كثيراً

---

(١) الدوحة: الشجرة العظيمة.

(٢) غدواته وروحاته: أي ذهابه ورجوعه.

ما يُشاوِرُهُنَّ في الأُمورَ ويأخذُ آراءَهنَّ في الحوَادِثِ والنّوازِلِ. قالَ الملِكُ للأَوَّل منَ الخمسةِ: ما رَأيُكَ في هذا الأمْرِ؟ قالَ: رأيٌ قدْ سبَقَنا إليهِ العُلماءُ، وذلكَ أنّهمْ قالوا: ليْسَ للعدُوِّ الحَنِقِ[١] الذي لا طاقةَ لكَ بهِ إلاّ الهَرَبُ منهُ. قال الملكُ للثاني: ما رَأيُكَ أنتَ في هذا الأَمْرِ؟ قال: رَأيي ما رَأي هذا منَ الهرَبِ. قال الملكُ: لا أرَى لَكما ذلكَ رأياً، أنْ نَرْحَلَ عنْ أوْطانِنا ونُخْلِيَها لعدُوِّنا من أوّلِ نَكْبةٍ أصابَتْنا منهُ ولا ينبغي لنا ذلكَ، ولكِنْ نَجْمعُ أمرَنا ونَستَعِدُّ لِعدُوِّنا ونُذْكِي[٢] نارَ الحرْبِ فيما بَينَنا وبينَ عَدُوِّنا ونحترِسُ منَ الغِرَّةِ[٣] إذا أقبَلَ إليْنا فنَلقاهُ مُستَعِدِّينَ ونُقاتِلُه قِتالاً غيرَ مراجِعينَ فيهِ ولا حَامِينَ عنهُ[٤] وتَلقَى أطرَافُنا أطرَافَ العدُوِّ ونَتَحَرَّزُ بِحُصونِنا ونُدَافِعُ عدُوَّنا بالأَناةِ مرَّةً وبالْجِلاَدِ[٥] أخْرَى حَيْثُ نُصِيبُ فُرْصَتَنا وبُغْيَتنا، وقدْ ثَنَيْنا عدوَّنا عنّا.

ثمّ قالَ الملِكُ للثَّالثِ: ما رأيُكَ أنتَ؟ قال: لا أرَى ما قالاَ رَأياً، ولكنْ نَبُثُّ العيُونَ[٦] ونَبْعَثُ الجواسِيسَ ونُرْسِلُ الطَّلائعَ بيْننا وبينَ عدُوِّنا فنَعلَمُ هلْ يُريدُ صُلْحَنا؟ أمْ يُريدُ حَرْبَنا؟ أمْ يُريدُ الفِدْيةَ؟ فإنْ رأيْنا أمرَهُ أمْرَ طامعٍ في مالٍ لمْ نَكْرَهِ الصلْحَ على خَراجٍ نُؤَدِّيهِ إليهِ في كلِّ سنَةٍ نَدْفَعُ بهِ عنْ أنفُسِنا ونَطْمئنُّ في أوْطانِنا، فإنّ منْ آراءِ المُلوكِ إذا اشْتدَّتْ شوْكةُ[٧] عدُوِّهمْ فخافُوهُ على أنْفُسِهمْ وبلادِهم أنْ يجعَلوا الأموالَ جُنَّةَ[٨] البلادِ والملِكِ

(١) الحنق: الشديد الغيظ.
(٢) نذكي: نُسَعِّر.
(٣) الغِرَّةُ: الغفلة.
(٤) حامين: راجعين.
(٥) الجلاد: القوة.
(٦) نبث العيون: نفرق الرقباء.
(٧) شوكة: قوة.
(٨) الجنة: الترس.

والرَّعيَّةِ قال الملكُ للرَّابعِ: فما رأيُكَ في هذا الصلْح؟ قال: لا أراهُ رأياً بلْ أنْ نُفارِقَ أوْطانَنا ونَصبِرَ على الغُرْبَةِ وشدَّةِ المعِيشةِ خَيرٌ مِنْ أنْ نُضِيعَ أحْسابَنا ونَخْضَعَ للعدُوِّ الذي نحنُ أشرَفُ منهُ، معَ أنَّ البُومَ لوْ عَرَضْنا ذلكَ علَيْهِنَّ لَمَا رَضِيْنَ منّا إلاّ بالشَّطَطِ ويقالُ في الأَمْثالِ: قارِبْ عدُوَّكَ بعْضَ المُقارَبةِ لِتَنالَ حاجتَكَ ولا تُقارِبْهُ كلَّ المُقارَبةِ فيَجترِىءَ عليْكَ ويُضْعِفَ جُندَكَ وتَذِلَّ نفْسُكَ.

ومثَلُ ذلكَ مثَلُ الخشَبةِ المَنصوبةِ في الشَّمسِ إذا أمَلْتَها قليلاً زادَ ظِلُّها وإذا جاوزْتَ بها الحَدَّ في إمالَتِكها نقَصَ الظِّلُّ. وليسَ عدوُّنا راضِياً منَّا بالدُّونِ في المُقارَبةِ. فالرأيُ لنا ولكَ المُحارَبةُ. قال الملكُ للْخامسِ: ما تقولُ أنتَ وماذا تَرَى: القِتالَ أمِ الصلْحَ أمِ الجَلاءَ عنِ الوَطنِ؟ قال: أمَّا القتالُ فلا سبيلَ للْمَرْءِ إلى قِتالِ مَنْ لا يَقْوَى عليهِ، وقد يُقالُ: إنهُ مَنْ لا يَعْرِفُ نفْسَه وعدُوَّه وقاتلَ مَنْ لا يَقْوَى عليهِ حَمَلَ نفْسَه على حَتْفِها معَ أنّ الْعاقِلَ لا يَسْتَصْغِرُ عدُوًّا. فإنَّ منِ اسْتَصْغَرَ عدُوَّهُ اغتَرَّ بهِ ومنِ اغترَّ بعدوِّهِ لمْ يَسْلَمْ منْه، وأنا للْبُومِ شديد الهَيْبَةِ وإنْ أضْرَبْنِ عنْ قِتالِنا وقد كنتُ أهابُها قبْلَ ذلكَ. فإنَّ الحازِمَ لا يَأمَنُ عدُوَّهُ على كلِّ حالٍ فإنْ كانَ بعيداً لمْ يَأمَنْ سَطْوَتَه وإنْ كانَ مكثِباً[1] لمْ يَأمَنْ وَثْبتَهُ وإنْ كانَ وَحيداً لمْ يَأمَنْ مَكْرَه. وأحزَمُ الأقوامِ وأكيَسُهمْ[2] مَن كَرِهَ القِتالَ لأَجْلِ النَّفقةِ فيه. فإنَّ ما دُونَ القِتالِ النَّفقَةُ فيهِ منَ الأَموالِ والقوْلِ والعمَلِ، والقتالَ النفقَةُ فيهِ منَ الأَنْفُسِ والأَبْدَانِ ورُبّما اكتُفِيَ عنهُ بالنفَقةِ اليَسيرَةِ والكلامِ اللَّيِّنِ، فلا يكونَنَّ القِتالُ لِلْبُومِ منْ رأيِكَ أيها المَلِكُ، فإنّ مَنْ قاتَلَ مَنْ لا يَقْوَى عليهِ فقدْ غَرَّرَ بنَفْسِهِ.

فإنْ كانَ المَلِكُ مُحْصِناً للأَسرارِ مُتَخيِّراً للوُزَراءِ مَهِيباً في أعيُنِ النّاسِ

(١) مكثباً: قريباً.

(٢) أكيسهم: أعقلهم.

بعيداً مِنْ أنْ يُقْدَرَ عليه كانَ خَلِيقاً ألاَّ يُسْلَبَ صحيح ما أوتيَ منَ الخيرِ. وأنتَ أيُّها المَلِكُ! كذلكَ والملِكُ يَزْدَادُ برأيِ وُزَرائهِ بَصيرَةً كما يَزِيدُ البحْرُ بمُجاوِرِه منَ الأَنهارِ، وقدِ اسْتشَرْتَني في أمْرٍ جوابُكَ مِني عنهُ في بعضهِ عَلانِيَةٌ وقدْ أجَبْتُكَ بهِ، وفي بعضه سِرٌّ وللأَسْرارِ مَنازِلُ منها ما يَدْخُلُ فيهِ الرَّهْطُ[1] ومنها ما يُسْتعانُ فيهِ بالقوْمِ، ومنها ما يَدْخُلُ فيهِ الرَّجُلانِ. ولسْتُ أرَى لهذا السِّرِّ على قدَرِ منزِلَتهِ أنْ يُشارِكَ فيهِ إلاَّ أرْبعةُ آذانٍ ولِسانانِ، فنَهَضَ المِلِكُ منْ ساعتهِ وخَلاَ بهِ فاسْتَشارَهُ، فكانَ أوَّلَ ما سألَهُ عنهُ المِلِكُ أنهُ قال: هلْ تَعْلَمُ ابْتِداءَ العداوةِ ما بَيْنَنا وبينَ البُومِ؟ قال نعَمْ: كلِمةٌ تَكلَّمَ بها غُرابٌ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلك؟

[نصح الغراب للكراكي]

قال الغُرابُ: زَعَمُوا أنَّ جَماعةً منَ الكَرَاكِيِّ[2] لمْ يكنْ لها مَلِكٌ فأجْمَعَتْ أمْرَها على أنْ تُمَلِّكَ عليها مَلِكَ البُوم، فبينما هيَ في مَجْمعِها إذْ وقَعَ لها غُرابٌ. فقالتْ: لوْ جاءَنا هذا الغُرابُ لاَسْتَشَرْناهُ في أمرِنا، فلمْ يَلْبَثْنَ دونَ أنْ جاءَهُنَّ الغُرابُ فاستَشَرْنَهُ فقالَ: لوْ أنَّ الطَّيْرَ بادَتْ منَ الأقاليم وفُقِدَ الطَّاوُوسُ والبَطُّ والنَّعامُ والحَمامُ منَ الْعالَمِ لَمَا اضْطُرِرْتُنَّ إلى أنْ تُمَلِّكْنَ عليكُنَّ البُومَ التي هيَ أقْبَحُ الطَّيْرِ مَنْظَراً وأسْوَؤُها خَلْقاً وأقلُّها عقْلاً وأشدُّها غضَباً وأبعَدُها منْ كلِّ رَحمةٍ معَ عَماها وما بِها منَ العَشَا[3] في النهارِ، وأشدُّ منْ ذلكَ وأقْبَحُ أُمورِها سفَهُها وسوءُ أخْلاَقِها، إلاَّ أنْ تَرَيْنَ أن تُملِّكْنَها، وتكُنَّ أنتُنَّ تُدَبِّرْنَ الأُمورَ دُونَها بِرَأيِكُنَّ وعُقولِكُنَّ كما فَعَلَتِ الأَرْنَبُ التي زعَمَتْ أنَّ القمَرَ مَلِكُها ثمَّ عَمِلَتْ برأيِها، قالتِ الطَّيْرُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

---

(١) الرهط: الجماعة.

(٢) الكراكي واحدة الكُرْكي: طائر معروف.

(٣) العشا: ضعف البصر.

[الأرنب تنقذ جماعتها من ملك الفيلة]

قال الغُرابُ: زَعمُوا أنَّ أرْضاً منْ أرَاضِي الفِيلَة تَتابَعَتْ عليها السِّنُونُ وأجدَبَتْ[١] وقَلَّ ماؤُها وغارَتْ عُيونها وَذَوَى[٢] نَبْتُها ويَبِسَ شجرُها فأصَابَ الفيَلةَ عَطَشٌ شدِيدٌ، فشَكَوْنَ ذلكَ إلى مَلِكِهِنَّ فأرْسَلَ المِلكُ رُسُلَهُ ورُوَّادَهُ[٣] في طلَبِ الماءِ في كلِّ ناحِيةٍ، فرَجَعَ إليهِ بعْضُ الرُّسُلِ فأخبَرَهُ أني قدْ وَجَدْتُ بمكانِ كذَا عيْناً يُقالُ لها: عيْنُ القَمَرِ كثيرَةُ الماءِ، فتَوَجَّهَ مِلكُ الفِيلَةِ بأصْحابِهِ إلى تلْكَ العيْنِ ليَشْرَبَ منْها هوَ وفيلَتُه. وكانتِ العيْنُ في أرْضٍ للأَرانِبِ فوَطِئْن الأرانِبَ في أجْحارِهِنَّ فأهلَكْنَ منهُنَّ كثيراً، فاجْتَمَعَتِ الأرانِبُ إلى مِلكِها فقلْنَ لهُ: قدْ عَلِمْتَ ما أصابَنا منَ الْفيَلةِ. قالَ: لِيُحْضِرْ منكُنَّ كلُّ ذي رأي رأيَهُ. فتَقدَّمَتْ أرْنَبٌ منَ الأَرانِبِ يقالُ لها: فَيْرُوزُ.

وكانَ الملكُ يَعْرِفُها بحُسْنِ الرَّأيِ والأدَبِ فقالتْ: إنْ رأى المِلكُ أنْ يَبْعَثَني إلى الفِيلَةِ ويُرْسِلَ مَعي أمِيناً ليَرَى ويَسْمَعَ ما أقولُ ويَرْفَعَهُ إلى المِلكِ. فقالَ لها المِلكُ: أنتِ أمِينةٌ ونَرْضَى بقوْلِكَ فانطَلِقي إلى الفيلةِ وبلّغي عنِّي ما تُريدينَ، واعلَمي أنَّ الرَّسولَ برَأيِه وعقْلِهِ ولِينهِ وفَضْلهِ يُخْبِرُ عنْ عقْلِ المُرْسِلِ، فعليْكِ باللِّينِ والرِّفْقِ والحِلمِ والتَّأني فإنَّ الرسولَ هو الذِي يُليِّنُ الصُّدورَ إذا رَفَقَ، ويُخَشِّنُ الصدُورُ إذا خَرِقَ[٤]، ثمَّ إنّ الأَرْنبَ انطلَقتْ في لَيْلةٍ قَمْراءَ حتى انتهَت إلى الفيَلةِ، وكَرِهَتْ أنْ تدْنُوَ منهنَّ مخافةَ أنْ يطأنَها بأرْجُلهِنَّ فيَقْتُلْنَها وإنْ كنَّ غيرَ مُتَعمِّداتٍ فأشْرَفَتْ على الجبَلِ ونادَتْ مَلِكَ الْفِيلَةِ وقالتْ لهُ: إنَّ القمَرَ أرْسلَني إليْكَ والرَّسولُ غيرُ مَلُومٍ فيما يُبَلِّغُ وإنْ أغلَظَ في القوْلِ. قال ملِكُ الفيَلةِ: فما الرِّسالةُ؟ قالتْ: يقولُ لكَ إنهُ مَنْ

---

(١) السنون: أيام الجدب. وأجدبت: أمحلت.

(٢) ذَوَى: ذَبُلَ.

(٣) رواد جمع رائد: وهو الطليعة.

(٤) خَرِق: حَمُقَ.

عرَفَ فَضْلَ قوَّتِه على الضُّعفاءِ فاغترَّ بذلكَ في شأنِ الأقوِياءِ قِياساً لهمْ على الضُّعَفاء كانت قوَّتُه وبَالاً عليهِ، وأنتَ قدْ عَرَفْتَ فضْلَ قوَّتِكَ على الدَّوَابِ فغَرَّكَ ذلكَ فعمَدْتَ إلى العيْنِ التي تُسْمَى باسْمِي فشَرِبْتَ منها وكَدَّرْتَها.

فأرْسَلَني إليكَ فَأُنْذِرُكَ أَلاَّ تَعودَ إلى مِثْلِ ذلكَ، وأنتَ إنْ فعَلْتَ يُغشّي على بُصَرِكَ ويُتْلِفُ نَفْسَكَ، وإنْ كنتَ في شكٍّ منْ رسالَتي فهلُمَّ إلى العيْنِ منْ ساعَتِكَ فإنهُ مُوَافيكَ بها. فعَجِبَ ملكُ الفِيَلةِ منْ قوْلِ الأرنبِ فانطلَقَ إلى العينِ معَ فَيْرُوزَ الرَّسولِ، فلمَّا نظَرَ إليْها رأى ضَوْءَ القمَرِ فيها فقالتْ لهُ فيرُوزَ الرَّسولُ: خذْ بخُرْطُومِكَ منَ الماءِ فاغْسِلْ بهِ وجْهَكَ واسجُدْ للقَمَرِ. فأدْخَلَ الفِيلُ خُرْطُومَهُ في الماءِ فتَحَرَّكَ فخُيِّلَ إلى الفِيلِ أنَّ القمَرَ ٱرْتَعَدَ فقالَ: ما شأنُ القمرِ ارْتَعَدَ أَتُرَاهُ غَضِبَ منْ إدْخالِي الخُرْطومَ في الماءِ؟ قالتْ فيرُوزُ الأرْنَبُ: نعمْ، فسجَدَ الفيلُ للْقمَرِ مرَّةً أخْرَى وتابَ إليْهِ ممَّا صَنَعَ وشَرَطَ أَلاَّ يَعُودَ إلى مِثْلِ ذلكَ هو ولا أحدٌ منْ فِيَلَتِه.

قال الغُرابُ: ومعَ ما ذَكَرْتُ منْ أمرِ البُوم فإنَّ فيها الخِبَّ والمَكْرَ والخدِيعةَ، وشرُّ المُلوكِ المُخادِعُ، ومنِ ٱبْتُلِيَ بسُلْطانِ مُخادِعٍ وخدَمَهُ أصابَهُ ما أصابَ الأرْنبَ والصِّفْرِدَ[1] حينَ احتَكَما إلى السِّنَّوْرِ قالتِ الكَراكيُّ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

[حكاية الأرنب والصفرد والناسك الكذاب]

قال الغُرابُ: كانَ لي جارٌ منَ الصَّفارِدِ في أصْلِ شجرَةٍ قريبةٍ منْ وَكْرِي، وكانَ يُكْثِرُ مُواصَلَتي، ثمَّ فَقَدْتُهُ فلمْ أعلمْ أيْنَ غابَ وطالتْ غَيْبَته عنِّي. فجاءَتْ أرْنَبٌ إلى مكانِ الصِّفْرِدِ فَسكَنَتْهُ فكَرِهْتُ أنْ أخاصِمَ الأرْنبَ فلَبِثْتُ فيهِ زَماناً. ثمَّ إنَّ الصِّفْرِدَ عادَ بعدَ زَمانٍ فأتى منزِلَهُ فوَجَدَ فيهِ الأرْنَبَ

(١) الصفرد: طائر.

فقالَ لها: هذا المَكانُ لي فانْتقِلي منهُ، قالتِ الأرنبُ: المَسْكِنُ لي وتحتَ يَدي وأنتَ مُدَّع لهُ، فإنْ كانَ لَكَ حَقٌّ فاستَعْدِ عليَّ[١]. قالَ الصِّفْرِدُ: القاضي مِنّا قريبٌ فهلُمِّي بنا إليْهِ، قالتِ الأَرْنبُ: ومَنِ القاضِي؟ قال الصِّفْرِدُ: إنَّ بِساحلِ البحْرِ سِنَّوْراً مُتعَبِّداً يَصُومُ النهارَ ويقومُ الليلَ كلَّهُ ولا يُؤذِي دابّةً ولا يُهْرِيقُ[٢] دماً، عَيْشُهُ منَ الحشِيشِ وممَّا يَقْذِفُه إليهِ البَحْرُ، فإنْ أحْبَبْتِ تَحاكَمنا إليْهِ ورَضِينَا بهِ. قالتِ الأرنبُ: ما أرْضاني بهِ إذا كانَ كما وَصَفْتَ. فانْطلَقا إليْهِ. فتَبِعْتُهُما لأنظُرَ إلى حكُومةِ الصَّوَّام، ثمَّ إنهُما ذَهَبا إليْهِ فلمَّا بَصُرَ السِّنَّوْرُ بالأرنَبِ والصِّفْرِدِ مُقْبلَيْنِ نحوَهُ انتَصَبَ قائماً يُصلّي وأظهَرَ الخشُوعَ والتَّنسُّكَ.

فعَجبا لِمَا رأيَا منْ حالهِ ودَنَوا منهُ هائِبيْنِ لهُ وسَلَّما عليهِ وسَألاهُ أنْ يَقْضِيَ بينهما، فأمرَهُما أنْ يَقُصَّا عليهِ القِصّةَ ففعَلاَ، قالَ لهما: قدْ بَلَغَني الكِبَرُ وثقُلَتْ أذُنايَ[٣] فادْنُوا مني فأسْمِعاني ما تُقولانِ فدَنَوَا منهُ وأعادَا عليْهِ القِصَّةَ وسألاَهُ الحُكْمَ، فقالَ: قدْ فَهِمْتُ ما قلتُما وأنا مُبتدِئُكُما بالنَّصِيحَةِ قبلَ الحُكومةِ بينكما فأنا آمُرُكُما بتَقْوَى الله، وألاَّ تَطْلُبا إلا الحَقَّ، فإنَّ طالِبَ الحَقِّ هوَ الذي يُفْلِحُ وإنْ قُضِيَ عليهِ وطالِب الباطلِ مَخْصومٌ[٤] وإنْ قُضِيَ لهُ، وليْسَ لِصاحِبِ الدُّنْيا منْ دُنْياهُ شيءٌ لا مالٌ ولاَ صَدِيقٌ سِوَى العَمَلِ الصَّالحِ يقدِّمُه. فذُو العقْلِ حَقيقٌ أنْ يكونَ سَعْيُهُ في طلَبِ ما يَبْقَى ويعُودُ نفْعُهُ عليهِ غداً وأنْ يَمْقُتَ بسَعْيِه ما سِوَى ذلكَ منْ أمُورِ الدنْيا فإنَّ مَنزِلةَ المالِ عندَ العاقل بمنزِلةِ المَدَرِ[٥]، ومَنزلةَ النَّاسِ عندَهُ فِيما يُحِبُّ لهمْ منَ

(١) استَعْدِ على: استعن.
(٢) يهريق: يريق.
(٣) ثقلت أذناي: ضعف سمعي.
(٤) مخصوم: مغلوب بالخصام.
(٥) المدر: الطين اليابس.

الخير ويَكْرَهُ منَ الشرِّ بمنزلةِ نفْسِه، ثمَّ إنَّ السِّنَّوْرَ لمْ يَزَلْ يَقُصُّ عليهما منْ جِنْس هذا وأشْباهِهِ حتى أنِسَا إليهِ وأقبَلا عليهِ ودَنَوَا منهُ فوَثَبَ عليهِما فقتَلَهُما.

قال الغُرابُ: ثمَّ إنَّ البُومَ تَجْمَعُ معَ ما وَصَفْتُ لَكُنَّ من الشُّوْم[١] وسائرِ العيُوبِ فلاَ يكُونَنَّ تمليكُ البُومِ منْ رَأيِكُنَّ. فلمَّا سَمِعَ الكرَاكِيُّ ذلكَ منْ كلاَمِ الغُرابِ أضْرَبْنَ عنْ تَمليكِ البُومِ، وكانَ هُناكَ بُومٌ حاضِرٌ قدْ سَمِعَ ما قالوا فقالَ للغُرابِ: لقدْ وَتَرْتَني[٢] أعظَمَ التَّرَةِ[٣] ولا أعلمُ أنهُ سَلَفَ مني إليْكَ سُوءٌ أوْجَبَ هذا، وبعْدُ فاعلَمْ أنَّ الفأسَ يُقْطَعُ بها الشَّجَرُ فيَعودُ يَنْبُتُ، والسَّيْفُ يَقْطَعُ اللَّحْمَ، ثم يَرْجِعُ فيَنْدَمِلُ واللِّسانُ لا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ ولا تُؤسي مَقاطِعُه[٤] وأنَّ النَّصْل منَ السَّهْمِ يَغِيبُ في اللَّحْمِ ثمّ يُنزَعُ فيَخْرُجُ، وأشْباهُ النَّصْلِ منَ الكلاَمِ إذا وصَلَتْ إلى القلْبِ لمْ تُنزَعْ ولَمْ تُسْتَخْرَجْ، ولكلِّ حَريقٍ مُطْفىءٌ فللنَّارِ الماءُ، وللسُّمِّ الدَّواءُ، وللْحُزْنِ الصَّبْرُ، وللْعِشْقِ الفُرْقَةُ، ونارُ الحِقْدِ لا تَخْبُو[٥] أبداً.

وقدْ غَرَستمْ مَعاشِرَ الغُرْبانِ بيْنَنا وبينَكُمْ شجَرَ الحِقْدِ والعَداوَةِ والبَغْضاءِ. فلمَّا قَضَى البُومُ مَقالتَهُ ولَّى مُغْضَباً فأخبرَ مَلِكَ البُومِ بما جرَى وبكلِّ ما كانَ منْ قَوْلِ الغُرابِ. ثمَّ إنَّ الغُرابَ نَدِمَ على ما فَرَطَ منهُ وقالَ: واللهِ لقدْ خَرِقْتُ في قوْلِي الذِي جَلَبْتُ بهِ العدَاوَةَ والبَغْضاءَ على نفْسِي وقوْمِي ولَيتَني لمْ أخْبِرِ الكَرَاكِيَّ بهذهِ الحالِ ولمْ أعْلِمْها بهذا الأَمْرِ، ولعَلَّ أكثرَ الطَّيْرِ قدْ رَأى أكثرَ ممَّا رأيْتُ وعَلِمَ أضْعافَ ما عَلِمْتُ فمنَعَها منَ

(١) الشوم: الشر.
(٢) وترتني: أصبتني بسوء.
(٣) الترة: الظلم.
(٤) تؤسي: تداوي... ومقاطعه: أي مواضع قطعه.
(٥) تخبو: تنطفئ.

الكلامِ بِمِثْلِ ما تَكلَّمْتُ اتِّقاءُ مَا لَمْ أتَّقِ والنَّظَرُ فيما لَمْ أنظُرْ فيهِ منْ حِذَارِ العَواقبِ، لاسِيَّما إذا كانَ الكلامُ أفظَعَ كلاَم يَلْقَى منهُ سامِعهُ وقائِلُهُ المَكرُوهَ ممَّا يُورِثُ الحِقْدَ والضغِينةَ، فلاَ يَنْبغي لأشْباهِ هذا الكلامِ أنْ يُسَمَّى كلاماً ولكِنْ سِهاماً، والْعاقِلُ وإنْ كانَ واثِقاً بقُوَّتِه وفضْلِهِ لا يَنبغي أنْ يَحْمِلَهُ ذلكَ على أنْ يجْلِبَ العَداوَةَ لنفْسهِ اتِّكالاً على ما عندهُ منَ الرَّأيِ والقوَّةِ كما أنهُ وإنْ كانَ عِنْدَهُ التِّرْياقُ لا يَنبغي لهُ أنْ يَشْرَبَ السُّمَّ اتِّكالاً على ما عِنْدَهُ، وصاحِبُ حُسْن العمَلِ وإنْ قَصَّرَ بهِ القوْلُ في مُسْتقبَلِ الأمْرِ كانَ فضلُهُ بَيِّناً واضِحاً في العاقِبَةِ والاخْتِيارِ.

وصاحِبُ حُسْنِ القوْلِ وإنْ أعْجَبَ النّاسَ منهُ حُسْنُ صفَتِه للأُمُورِ لَمْ تُحْمَدْ عاقبةُ أمرِه وأنا صاحِبُ القولِ الذِي لا عاقبةَ لهُ مَحْمودَةً، أليْسَ منْ سَفَهي اجترَائي على التكلُّم في الأمْرِ الجَسيمِ لا أسْتَشيرُ فيهِ أحداً، ولَمْ أعْمِلْ فيهِ رأياً، ومَنْ لَمْ يَستَشِرِ النُّصَحاءَ الأوْلِياءَ وعَمِلَ برَأيِه منْ غيرِ تَكْرَارِ النَّظَرِ والرَّوِيَّةِ لَمْ يَغْتبِطْ بمَواقِعِ رَأيِه، فما كانَ أغْناني عمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هذا ومَا وَقَعْتُ فيهِ منَ الهَمِّ... وعاتَبَ الغُرابُ نفْسَهُ بهذا الكلامِ وأشباهِهِ وذَهَبَ.

فهذا ما سَألتَني عنهُ منِ ابتِدَاءِ العدَاوَةِ بينَنا وبَينَ البُومِ، وأمَّا القِتالُ فقدْ عَلِمْتَ رَأيي فيهِ وكَرَاهتي لهُ ولَكنَّ عندِي منَ الرَّأيِ والحِيلةِ غيرَ القِتالِ ما يكُونُ فيهِ الفَرَجُ إنْ شاءَ الله تعالى، فإنهُ رُبَّ قوْمٍ قدِ احْتالوا بآرائهِمْ حتى ظَفِرُوا بما أرادُوا، ومنْ ذلكَ حدِيثُ الجَماعةِ الذِينَ ظَفِرُوا بالنَّاسِكِ وأخَذُوا عَرِيضَهُ[1] قال الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

[أمر اللصوص والناسك]

قال الغُرابُ: زعَمُوا أنَّ ناسِكاً اشترَى عَرِيضاً ضَخْماً ليَجْعلَهُ قُرْباناً،

(١) العريض: من المعز ما بلغ السنة.

فانطلَقَ بهِ يقُودُهُ فبَصُرَ بهِ قوْمٌ منَ المَكَرَةِ فائْتمَرُوا[١] بينهم أنْ يأخذُوهُ منَ النّاسِكِ فعَرَضَ لهُ أحدُهمْ فقال لهُ: أيُّها النّاسِكُ! ما هذا الكلْبُ الذِي معَكَ؟ ثمَّ عَرَضَ له الآخَرُ فقالَ لصاحبِه: ما هذا ناسِكاً لأنَّ النَّاسِكَ لا يقُودُ كلْباً، فلمْ يَزالوا معَ النَّاسِكِ على هذا ومِثْلِهِ حتى لمْ يَشُكَّ أنَّ الذي يقودُهُ كلْبٌ وأنَّ الذِي باعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَ عيْنَيْهِ، فأطلَقَهُ منْ يدِهِ فأخذَهُ الجَماعة المُحْتالونَ ومَضَوْا بهِ.

وإنما ضَرَبْتُ لكَ هذا المثَلَ لِمَا أرْجُو أنْ نُصِيبَ منْ حاجَتِنا بالرِّفْقِ والحِيلةِ، وإني أُرِيدُ منَ الملِكِ أنْ يَنْقُرَني[٢] على رُؤُوسِ الأشْهادِ ويَنْتِفَ رِيشِي وذَنَبي ثمَّ يَطْرَحَني في أصْلِ هذهِ الشجَرَةِ ويَرْتَحِلَ الملِكُ وجُنودُهُ إِلى مكانِ كذَا، فأَرْجُو أني أصبرُ وأَطَّلِعُ على أحْوَالِهِمْ ومَواضِع تحْصِينِهِمْ وأبْوابِهِمْ فأُخادِعُهمْ وآتي إِلَيْكُمْ لِنَهْجُمَ عَلَيْهِمْ ونَنالَ منهمْ غرَضَنا إِنْ شاءَ الله تعالى. قالَ الملكُ: أتَطِيبُ نَفْسُكَ لذلكَ. قالَ نعَمْ: وكيْفَ لا تَطِيبُ نفْسِي لذلكَ وفيهِ أعظَمُ الرَّاحاتِ للْملِكِ وجُنودِهِ، ففعَلَ الملِكُ بالغُرَابِ ما ذَكَرَ ثمَّ ارْتَحَلَ فجعَلَ الغُرابُ يئِنُّ ويَهْمِسُ حتى سَمِعَهُ البُومُ ورأيْنَهُ يَئِنُّ فأخبَرْنَ مِلِكَهُنَّ بذلِكَ فقَصَدَ نحوَهُ لِيَسألَهُ عنِ الغِرْبانِ، فلمَّا دَنا منهُ أمَرَ بُوماً أنْ يسألَه.

فقالَ لهُ: مَنْ أنتَ؟ وأيْنَ الغربْان؟ فقالَ: أمَّا اسمي ففُلاَنٌ، وأمَّا ما سألْتَني عنهُ فإِني أحْسَبُكَ تَرَى أنَّ حالي حالُ مَنْ لا يَعْلَمُ الأسرَارَ. فقيلَ لملِكِ البُومِ هذا وَزيرُ ملِكِ الغِرْبانِ وصاحِبُ رأيِهِ فنَسألُه بأيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بهِ ما صُنِعَ، فسُئِلَ الغُرَابُ عنْ أمْرِهِ، فقالَ إِنَّ مَلِكَنا استَشارَ جَماعتنا فيكُنَّ وكُنتُ يوْمئذٍ بمَحْضَرٍ منَ الأمْرِ فقالَ: أيها الغِرْبانُ! ما تَرَوْنَ في ذلكَ؟

(١) ائتمروا: تشاوروا.

(٢) ينقرني: يعيبني.

فقُلْتُ: أيها الملكُ! لا طاقةَ لنَا بِقِتالِ البُوم لأنهُنَّ أشدُّ بَطشاً وأحَدُّ قلْباً مِنَّا، ولكِنْ أرَى أنْ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ ثمّ نَبْذُلُ الفِدْيَةَ في ذلكَ فإنْ قَبِلَتِ البُومُ ذلكَ منّا وإلا هَرَبْنا في البِلاَدِ، وإذا كانَ القِتالُ بَينَنا وبينَ البُوم كانَ خيراً لهُنَّ وشَرًّا لنا، فالصُّلْحُ أفضلُ منَ الخُصومةِ، وأمَرْتُهُنَّ بالرجُوعِ عنِ الحَرْبِ وضَرَبْتُ لهنَّ الأمْثالَ في ذلكَ، وقلتُ لهُنَّ إنَّ العدُوَّ الشَّدِيدَ لا يَرُدُّ بأسَهُ وغضَبَهُ مثْلُ الخضُوعِ لهُ، ألاَ تَرَيْنَ إلى الحشِيشِ كيْفَ يَسْلَمُ منْ عاصِفِ الرِّيحِ لِلينِه ومَيْلِهِ معَها حيْثُ مالَتْ فَعَصَيْنَني في ذلك وزَعَمْنَ أنهنَّ يُرِدْنَ القِتالَ واتَّهَمْنَني فِيما قلْتُ، وقُلْنَ: إنكَ قدْ مالأْتَ البُومَ علَيْنا[1] ورَدَدْنَ قوْلِي ونَصِيحتي وعَذَّبْنَني بهذاَ العذَابِ وترَكَني الملِكُ وجنُودُه وارْتَحَلَ ولا عِلْمَ لي بهِنَّ بعدَ ذلكَ.

فلمَّا سَمِعَ مِلِكُ البُومِ مَقالةَ الغُرابِ قالَ لبعْضِ وُزَرَائِهِ: ما تقُولُ في الغُرابِ وما تَرَى فيهِ؟ قال: ما أرَى إلاّ المُعاجلةَ لهُ بالقتْلِ فإنَّ هذا أفضَلُ عُدَدِ الغِرْبانِ[2] وفي قَتْلهِ لنا راحَةٌ منْ مَكْرِهِ وفَقْدُهُ على الغِرْبانِ شدِيدٌ، ويُقالُ: مَنْ ظَفِرَ بالسَّاعةِ التي فيها يَنْجَحُ العمَلُ ثمَّ لا يُعاجِلُه بالذِي ينبَغي لهُ فلَيْسَ بحكيم، ومَنْ طَلَبَ الأمْرَ الجَسيمَ فأمكنَهُ ذلكَ فأغْفلَهُ[3] فاتَهُ الأمْرُ، وهوَ خلِيقٌ ألاَّ تَعودَ الفُرْصةُ ثانيةً، ومَنْ وَجَدَ عدُوَّهُ ضَعِيفاً ولمْ يُنْجِزْ[4] قتْلَهُ نَدِمَ إذا اسْتَقْوىَ ولمْ يَقْدِرْ عليهِ. قالَ الملِكُ لوَزِيرٍ آخرَ: ما تَرَى أنتَ في هذا الغُرابِ؟ قالَ: أرَى ألاَّ تَقْتُلَهُ، فإنَّ العدُوَّ الذّليلَ الذِي لا ناصِرَ لهُ أهْلٌ لأنْ يُسْتَبْقَى ويُرْحَمَ ويُصْفَحَ عنْهُ لاسِيَّما المُسْتَجِيرُ الخائِفُ فإنهُ أهْلٌ لأنْ يُؤَمَّنَ، والعدُوُّ إذا صَدَرَتْ منهُ المنْفعَةُ ولوْ كانَ غيرَ مُتعَمِّدٍ لَها أهْلٌ لأنْ

(١) مالأه: ساعده.

(٢) عدد: جمع عدة وهو ما أعددته لحوادث الدهر.

(٣) أغفله: تركه.

(٤) ينجز: يعجل.

يُصْفَحَ عنهُ بِسَبَبِها، كالتَّاجرِ الذِي عَطَفَ على سَارِقٍ لمَكانةِ امْرَأتِه عنْدَهُ. قال الملكُ: وكيْفَ كانَ ذلكَ؟

[قصة اللص الذي أصلح بين التاجر وزوجته]

قال الوَزيرُ: زَعموا أنهُ كانَ تاجِرٌ كثيرُ المالِ والمَتاعِ وكانتْ له امْرَأةٌ ذاتُ جَمالٍ، وكان بينه وبينها وحشةَ وأنَّ سارِقاً تَسَوَّرَ بيْتَ التّاجرِ فدَخَلَ فوجدَهُ نائماً ووَجَدَ امرَأتَهُ مستَيْقِظَةً فذُعِرَتْ منَ السَّارِقِ ووثَبَتْ إلى التَّاجِرِ فالْتَزَمَتْهُ[1] واعتَنَقَتْهُ وقدْ كانَ يَوَدُّ لوْ دَنَتْ منهُ يوْماً مَا، فاستَيْقَظَ التَّاجِرُ بالتزَامِها إيَّاهُ فقال: منْ أيْنَ لي هذِهِ النِّعْمةُ؟ ثمَّ بَصُرَ بالسُّارِقَ فقالَ: أيُّها السَّارِقُ أنتَ في حِلٍّ ممّا أخَذْتَ منْ مالِي ومَتاعي ولكَ الفضْلُ بما عَطَّفَتَ قلْبَ زَوْجتي على مُعانَقتي.

قالَ مَلِكُ البُوم لوزيرٍ آخرَ منْ وُزَرائهِ: ما تقُولُ في الغُرابِ؟ قالَ: أرَى أنْ تَستَبْقِيَهُ وتُحْسِنَ إليهِ فإنهُ خَلِيقٌ أنْ يَنْصحَكَ، والعاقلُ يَرى مُعاداة بعْضِ أعدَائهِ بعضاً ظفَراً حسَناً ويَرى اشْتِغالَ بعْضِ أعدائهِ ببَعْضٍ خَلاصاً لنفْسهِ منهمْ ونَجاةً كنَجاةِ النّاسكِ منَ اللّصِّ والشّيْطانِ حينَ اختَلَفَا عليهِ. قالَ الملِكُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

قال الوزيرُ: زَعَمُوا أنَّ ناسكاً أصابَ منْ رجُلٍ بقَرَةً حَلُوبةً، فانطلَقَ بها يقُودُها إلى مَنزلِهِ فعَرَضَ لهُ لِصٌّ أرادَ سَرِقتَها وتَبِعَهُ شيْطانٌ يُريدُ اخْتِطافَهُ. فقالَ الشيْطانُ للّصِّ: مَنْ أنتَ؟ قالَ: أنا اللصُّ أريدُ أنْ أسرقَ هذهِ البقَرَةَ مِنَ الناسكِ إذا نامَ فَمنْ أنْت؟ قال: أنا الشيْطانُ أريدُ اختْطِافَه إذا نامَ وأذْهَبُ بهِ. فانْتَهيا على هذا إلى المنزِلِ فدَخَلَ الناسِكُ مَنزلَهُ ودخَلاَ خَلفهُ، وأدخَلَ البقرةَ فرَبطَها في زَاوِيةِ المَنزِلِ وتَمشَّى ونامَ، فأقبَلَ اللّصَّ والشيْطانُ

(١) التزمته: اعتنقته.

يَأتمِرَانِ فيهِ واختَلَفا على مَنْ يَبْدَأ بشُغلهِ أوَّلاً. فقالَ الشيْطانُ للّصِّ: إنْ أنتَ بَدَأتَ بأخذِ البقرَةِ ربّما استَيْقَظَ وصاحَ واجتَمَعَ الناسُ فلاَ أقدِرُ على أخْذِهِ فانتَظِرْني رَيْثَما آخُذُهُ وشأنَكَ وما تُرِيدُ. فأشفَقَ[1] اللصُّ إنْ بَدَأ الشَّيْطانُ باخْتِطافهِ أنْ يَستَيْقِظَ فلا يَقْدِرُ على أخذِ البقرَةِ فقالَ: لا بَلِ انْتَظِرْني أنتَ حتى آخُذَ البقرةَ وشأنّكَ وما تُرِيدُ فلمْ يَزالاَ في المُجادَلةِ هكذا حتى نادَى اللصُّ: أيُّها الناسِكُ! انتَبِهْ فهذَا الشيْطانُ يُرِيدُ اخْتِطافَكَ، ونادَى الشيْطانُ أيُّها النّاسِكُ! انتَبِهْ فهذَا اللصُّ يُرِيدُ أنْ يَسرِقَ بَقَرَتَكَ، فانتَبَهَ النّاسِكَ وجيرَانُهُ بأصواتِهما وهَرَبَ الخَبيثانِ.

فقالَ الوزيرُ الأوَّل الذِي أشارَ بقتْلِ الغُرابِ: أظُنُّ أنَّ الغرابَ قدْ خَدَعَكُنَّ ووقَعَ كلامُهُ في نفْسِ الغَبيِّ مِنكُنَّ مَوْقِعَهُ فتُرِدْنَ أنْ تَضَعْنَ الرَّأيَ في غيرِ مَوْضِعهِ، فَمْهلاً مَهْلاً أيها الملِكُ! عنْ هذا الرَّأيِ ولا تَكُونَنَّ كالرَّجُلِ الذِي كَذَّبَ بِما رَأى، وصَدَّقَ بما سَمِعَ، وانْخَدَعَ بالمُحَالِ.

فلمْ يَلتَفِتِ الملِكُ إلى قوْلِهِ وأمَرَ بالغرَابِ أنْ يُحْمَلَ إلى مَنازِلِ البُومِ ويُكْرَمَ ويُسْتَوْصَى بهِ خيراً، ثمّ إنّ الغرَابَ قال للْملِكِ يوْماً وعندَهُ جَماعةٌ منَ البُومِ وفيهِنَّ الوزيرُ الذِي أشارَ بقَتلِهِ: أيُّها الملِكُ! قدْ عَلِمْتَ ما جَرَى عليَّ منَ الغِرْبانِ وإنهُ لا يَستَرِيحُ قلبي دُونَ الأخْذِ بِثأرِي منهُنَّ، وإني قدْ نظَرْتُ في ذلكَ فإذا بي لا أَقْدِرُ على ما رُمْتُ لأني غُرَابٌ، وقدْ رُوِيَ عن العُلماءِ أنّهمْ قالوا: مَنْ طابَتْ نفْسهُ بأنْ يُحْرِقَها فقدْ قَرَّبَ لله أعظَمَ القُرْبانِ لا يَدْعُو عندَ ذلكَ بدَعْوَةٍ إلاَّ ٱستُجِيبَ لهُ.

فإنْ رأى الملِكُ أنْ يَأمُرَني فأحْرِقَ نفْسِي وأدْعُوَ رَبي أنْ يُحوِّلَني بُوماً فأكونَ أشدَّ عدَاوَةً للْغِرْبانِ وأقْوَى بأساً عليْهِنَّ لَعَلِّي أنْتقِمُ منهُنَّ. فقالَ الوزيرُ الذِي أشارَ بِقَتلِهِ: ما أشْبَهَكَ في خير ما تُظْهِرُ وشرِّ ما تُخْفي إلاَّ بالخمرَةِ

(١) أشفق: خشي.

الطيِّبَةِ الطَّعْمِ والرِّيحِ المُنْقَعِ فيها السُّمُّ، أرأيْتَ لوْ أحْرَقْنا جِسْمَكَ بالنّارِ كانَ جَوْهَرُك وطِباعُكَ مُتغيِّرَةً أليْسَتْ أخلاقُكَ تَدُورُ معَكَ حيْثُما دُرْتَ وتَصيرُ بعدَ ذلكَ إلى أصْلِك وطِينتِكَ، كالْفأرَةِ التي خُيِّرَتْ في الأزْواجِ بين الشَّمْسِ والرِّيحِ والسَّحابِ والجَبَلِ فلمْ يَقَعِ اخْتِيارها إلاَّ على الجُرَذِ، قيلَ لهُ: وكيفَ كان ذلكَ؟

[الناسك والفأرة]

قالَ: زعَمُوا أنَّ ناسِكاً مُسْتجابَ الدَّعْوَةِ بَينما هوَ ذاتَ يوْمٍ جالِسٌ على ساحلِ البَحْرِ إذْ مَرَّتْ بهِ حِدَأةٌ[1] في رِجْلِها دَرْصُ[2] فأرَةٍ، فوَقَعَتْ منها عنْدَ النّاسِكِ وأدْرَكَتْهُ لَها رَحمٌ فأخَذَها ولَفَّها في ورَقَةٍ وذَهَبَ بها إلى مَنزِلهِ، ثمَّ خافَ أنْ تَشُقَّ على أهلهِ تَرْبِيَتُها، فدَعا ربَّهُ أنْ يُحوِّلها جارِيةً فتَحَوَّلَتْ حَسْناءَ، فانطلَقَ بها إلى امرَأتِهِ فقالَ لها: هذِهِ ٱبنَتي فاصْنَعي معَها صَنِيعَكَ بوَلَدِي، فلمَّا بَلَغَتْ مبلَغَ النِّسَاءِ قالَ لها النّاسِكُ: يا بُنيَّةُ إنكِ قدْ أدْرَكْتِ ولا بُدّ لَكِ من زَوْجٍ فاخْتاري مَنْ أحْبَبْتِ حتى أزَوِّجَكِ بهِ؟ فقالتْ: أمَّا إذْ خَيَّرْتَني فإني أخْتارُ زَوْجاً يكُونُ أقْوى الأشْياءِ.

فقالَ النَّاسِكُ: لعَلَّكِ تُريدِينَ الشمْسَ. ثمَّ انطلَقَ إلى الشَّمْسِ فقالَ لها: أيُّها الخَلْقُ الْعظيمُ! لِي جَاريةٌ وقدْ طلَبَتْ زَوْجاً يكونُ أقْوى الأشْياءِ فهلْ أنتَ مُتزوِّجُها. فقالت الشَّمْسُ: أنا أدُلُّكَ على مَنْ هُوَ أقْوَى منِّي، السَّحابُ الذي يُغطّيني ويَرُدُّ جِرْمَ شُعاعِي ويَكْسِفُ أَشِعَّةَ أنْوارِي. فذَهَبَ النَّاسِكُ إلى السَّحابِ فقالَ لهُ ما قالَ للشمْسِ، فقالَ السَّحابُ: وأنا أدُلُّكَ على مَنْ هو أقوَى منِّي، فاذْهَبْ إلى الرِّيحِ التي تُقْبِلُ بي وتدْبِرُ وتَذْهَبُ بي شَرْقاً وغَرْباً، فجاءَ النَّاسِك إلى الرِّيحِ فقالَ لها كقوْلهِ لِلسَّحابِ فقالتْ: وأنا

(١) الحِدَأةُ: طائر معروف.

(٢) الدرص بالفتح ويكسر: ولد الفأرة.

أَدُلُّكَ على مَنْ هوَ أقْوَى منِّي وهو الجَبَلُ الذي لا أقْدِرُ على تحريكِهِ فمضَى إلى الجبَل فقالَ لهُ القوْلَ المذْكُورَ فأجابَهُ الجبَلُ وقالَ لهُ: أنا أدُلّكَ على مَنْ هو أقْوَى منِّي: الْجرَذُ الذِي لا أسْتطيعُ الامْتِناعَ منْهُ إذا خَرقَني واتَّخذَني مَسكناً. فانْطلقَ النَّاسِكُ إلى الجُرَذِ فقال لهُ: هلْ أنتَ مُتزَوِّجٌ هذهِ الجارِيةَ؟ فقال: وكيْفَ أتزَوَّجها وجُحْرِي ضَيِّقٌ، وإنما يَتَزَوَّجُ الجُرَذُ الْفأرَةَ، فدَعا النَّاسِكُ ربَّهُ أنْ يُحَوِّلَها فأرَةً كما كانتْ وذلكَ برِضَا الجارِيةِ. فأعادَها الله إلى عُنْصُرِها[1] الأوَّلِ فانْطلقَتْ معَ الجُرَذِ.

فهذاَ مَثَلُكَ أيها المُخادِعُ، فلمْ يَلتَفِتْ مَلِكُ البُوم إلى ذلكَ القَوْمِ ورَفَقَ بالغُرابِ ولمْ يَزْدَدْ لهُ إلاَّ إكْراماً، حتى إذا طابَ عيْشُهُ ونَبَتَ رِيشهُ واطَّلَعَ على ما أرَادَ أنْ يَطَّلِعَ عليه رَاغَ رَوْغَةً فأتَى أصْحابَهُ بما رَأى وسَمعَ، فقالَ لِلملِكِ: إني قدْ فَرَغْتُ ممَّا كنتُ أرِيدُ ولمْ يَبْقَ إلاَّ أنْ تَسْمَعَ وتُطيعَ. قال لهُ: أنا والجنْدُ تحتَ أمْرِكَ فاْحتَكِمْ كيْفَ شئْتَ. قال الغُرابُ: إنَّ البُومَ بمكانِ كذَا في جبَلٍ كثيرِ الحطَبِ، وفي ذلكَ الموْضِعِ قَطيعٌ الغنَمِ معَ رجُلٍ راعٍ ونحْنُ مُصِيبُونَ هُناكَ ناراً ونُلْقِيها في أنْقابِ البُومِ ونَقْذِفُ علَيْها منْ يابِسِ الحطَبِ ونُرَوِّحُ عليْها ضَرْباً بأجْنِحَتِنا حتى تَضْطَرِمَ النَّارُ في الحطَبِ، فَمنْ خَرَجَ منهُنَّ احترَقَ ومنْ لمْ يَخْرُجْ ماتَ بالدخَانِ موْضعَهُ، ففَعَلَ الغِرْبانُ ذلكَ فأهلَكْنَ البُومَ قاطِبةً ورَجَعْنَ إلى مَنازِلهِنَّ سالِماتٍ آمِناتٍ.

ثمَّ إنَّ مَلِكَ الغِرْبانِ قالَ لذلكَ الغُرابُ: كيْفَ صَبَرْتَ على صُحْبَةِ البُومِ ولا صَبرَ للأخْيارِ على صُحْبةِ الأشرَارِ؟ قال الغُرابُ: إنَّ ما قلتَهُ أيُّها الملِكُ! لَكذلِكَ، ولكِنَّ الْعاقلَ إذا أتاهُ الأمْرُ الفظيعُ العظيمُ الذي يَخافُ منْ عدَمِ تحَمُّلِهِ الجائِحةَ على نفْسهِ وقومه لم يَجْزَعْ منْ شِدّةِ الصبرِ عليْهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ أنْ يُعْقِبَهُ صَبرُهُ حُسْنَ العاقبَةِ وكَثيرَ الخَيرِ، فلمْ يَجِدْ لذلكَ ألَماً ولمْ تَكْرَهْ

(١) عنصرها: أصلها.

نفسُهُ الخُضُوعَ لمنْ هوَ دُونَهُ حتى يَبلُغَ حاجتَهُ فيَغْتَبِطَ بخاتِمةِ أمرِهِ وعاقِبةِ صَبرِهِ. فقالَ الملِكُ: أخْبِرْني عنْ عُقولِ البُومِ. قالَ الغُرابُ: لمْ أجِدْ فيهِنَّ عاقِلاً إلاَّ الذي كانَ يَحُثُّهُنَّ على قَتْلي وكانَ حَرَّضَهُنَّ على ذلكَ مِرَاراً فكُنَّ أضْعَفَ شيْءٍ رَأياً فلمْ يَنظُرْنَ في أمرِي ويَذْكُرْنَ أني قدْ كنْتُ ذَا مَنزِلةٍ في الغِرْبانِ، وأني أُعَدُّ منْ ذوِي الرَّأيِ، ولمْ يَتَخَوَّفْنَ مَكْرِي وحِيلتي ولا قَبلْنَ منَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ولا أخفَيْنَ دُوني أسرارَهُنَّ.

وقدْ قالَتِ العُلماءُ: يَنبغي للملِكِ أنْ يُحَصِّنَ أمورَهُ منْ أهلِ النَّمِيمةِ ولا يُطْلِعَ أحداً منهمْ على مَواضِعِ سِرِّهِ، فقالَ الملِكُ: ما أهْلَكَ البُومَ في نَفْسي إلاَّ البَغْيُ وضَعْفُ رأيِ الملكِ ومُوافقَتُهُ وُزَراءَ السُّوءِ. فقالَ الغُرَابُ: صَدَقْتَ أيها الملِكُ! إنهُ قَلَّما ظَفِرَ أحدٌ بِغنًى ولمْ يَطْغَ، وقَلما حَرَصَ الرَّجُلُ على النِّساءِ ولم يَفتَضِحْ، وقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَراءِ السُّوءِ وسَلِمَ منْ أنْ يَقَعَ في المَهالِكِ، وكان يُقالُ لا يَطْمَعنَّ ذُو الكِبْرِ في حُسْنِ الثَّناء، ولا الْخَبُّ في كَثرَةِ الصَّدِيقِ، ولا السَّيىءُ الآدابِ في الشرَفِ، ولا الشَّحيحُ في البِرِّ، ولا الحَريصُ في قلةِ الذنوبِ، ولا المَلِكُ المُخْتالُ المُتهاوِنُ بالأمورِ الضَّعيفُ الوُزَراءِ في ثَباتِ مُلكهِ وصَلاحِ رَعيَّتِهِ.

قال الملِكُ: لقد احْتَمَلْتَ مشَقَّةً شدِيدةً في تصنُّعِكَ للبُومِ وتضرُّعِكَ إليهِنَّ. قال الغُرابُ: إنهُ مَنِ احتَمَلَ مشَقَّةً يرْجُو نفْعَها ونحَّى عنْ نَفْسهِ الأنَفةَ والحَمِيَّة ووَطَّنَها على الصبرِ حَمِدَ غِبَّ[1] رَأيِه كما صَبَرَ الأسوَدُ على حَمْله ملِكَ الضَّفادِعِ على ظَهرِهِ وشَبِعَ بذلكَ وعاشَ. قال الملِكُ: وكيْفَ كانَ ذلِكَ؟

[محاورة بين ملك الضفادع والثعبان الأسود]

قال الغُرابُ: زعَمُوا أنَّ أسْوَدَ منَ الحَيَّاتِ كَبِرَ وضَعُفَ بصرُهُ وذَهَبَتْ

(١) غب رأيه: أي عاقبته.

قوَّتُهُ فلمْ يَسْتطِعْ صيْداً ولمْ يَقْدِرْ على طَعامٍ، وأنّهُ آنْسابَ يَلتَمِسُ شيئاً يَعيشُ بهِ حتى انتَهَى إلى عيْنٍ كثيرَةِ الضَّفادِعِ قدْ كانَ يأتِيها قبْلَ ذلكَ فيُصِيبُ منْ ضَفادِعِها رِزْقَهُ، فرَمَى نفْسَهُ قريباً منهُنَّ مُظْهِراً للكآبة والحُزْنِ.

فقالَ لهُ ضِفْدِعٌ: ما لِي أرَاكَ أيُّها الأسوَدُ كئيباً حزِيناً؟ قالَ: ومنْ أحْرَى[1] بطُولِ الحُزْنِ منِّي. وإنما كانتْ أكثرُ مَعِيشتي ممَّا كنْتُ أُصِيبُ منْ الضَّفادعِ فابْتُلِيتُ ببَلاءٍ حُرِّمَتْ عليَّ الضَّفادِعُ منْ أجْلِهِ حتى إنِّي إذا التَقَيْتُ ببعْضِها لا أقْدِرُ على إمْسَاكِهِ، فانطلَقَ الضِّفْدعُ إلى مَلِكِ الضفادع فبَشَّرَهُ بما سَمِعَ منَ الأسوَدِ، فأتى ملِكُ الضَّفادِعِ إلى الأسْوَدِ. فقالَ لهُ: كيْفَ كانَ أمْرُكَ؟ قال: سَعَيْتُ منْذُ أيَّامٍ في طلَبِ ضِفْدِعٍ وذلكَ عنْدَ المَساءِ فاضْطُرِرْتُ إلى بيتِ ناسكٍ ودَخَلْتُ في أثَرِه في الظُّلْمَةِ وفي البيْتِ ابْنٌ للنَّاسكِ، فأصْبَتُ إصْبَعَهُ فظَنَنْتُ أنها الضِّفْدِعُ فلَدَغْتُهُ فماتَ فخرَجْتُ هارِباً فتبِعَني النّاسِكُ في أثَرِي ودَعا عليَّ ولَعنَني وقالَ: كما قتَلْتَ ابْني البرِيءَ ظُلْماً وتَعدِّياً أدْعُو عليْكَ أنْ تَذِلَّ وتَصيرَ مَرْكَباً لملِكِ الضَّفادِعِ فلا تَسْتَطِيعَ أخْذَها ولا أكْلَ شيءٍ منها إلاّ ما يَتَصَدَّقُ به عليْكَ مَلكُها فأتيْتُ إليْكَ لِتَرْكبَني مُقِرًّا بذلكَ رَاضِياً بهِ. فرَغِبَ ملِكُ الضفادِعِ في رُكُوبِ الأسْوَدِ وظَنَّ أنَّ ذلكَ فخرٌ لهُ وشرَفٌ ورِفْعةٌ فرَكِبَهُ واستَطابَ ذلكَ. فقالَ لهُ الأسْوَدُ: قدْ عَلِمْتَ أيُّها الملِكُ أني مَحْرُومٌ فاجْعَلْ لي رِزْقاً أعِيشُ بهِ. قالَ ملِكُ الضفادِعِ لعَمْرِي لا بدَّ لكَ منْ رِزْقٍ يقُومُ بكَ إذْ كنْتَ مَرْكَبي فأمَر لهُ بِضِفْدِعَيْنِ يُؤْخَذانِ في كلِّ يوْمٍ ويُدْفَعانِ إليْهِ، فَعاشَ بذلكَ ولمْ يَضُرَّهُ خُضُوعُه للْعدُوِّ الذَّليلِ بلِ آنتَفَعَ بذلكَ وصارَ لهُ رِزْقاً ومَعيشةً.

وكذلكَ كانَ صَبرِي على ما صَبْرَتُ عليهِ آلْتِماساً لهذا النَّفْعِ العظيم الذي اجْتَمَعَ لنا فيهِ الأمْنُ والظَّفَرُ وهَلاَكُ العدُوِّ والرَّاحةُ منهُ، ووَجَدْتُ

(١) أحرى: أولى.

صَرْعةَ[١] اللَّينِ والرِّفْقِ أسْرَعَ وأشَدَّ اسْتِئْصالاً للعدُوِّ منْ صَرْعَةِ المُكابرَةِ، فإنّ النّارَ لا تَزيدُ بحِدَّتِها وحَرِّها إذا أصابَتْ الشجرَةَ على أنْ تُحْرِقَ ما فوْقَ الأرْضِ منها، والماءُ بلِينهِ وبَرْدِه يَسْتأصِلُ ما تحْتَ الأرْضِ منها، ويُقالُ: أرْبعةَ أشْياءَ لا يُسْتَقلُّ قليلُها: النّارُ، والمرَضُ، والعدُوُّ، والدَّيْنُ. قال الغُرابُ: وكلُّ ذلكَ كانَ منْ رأيِ الملكِ وأدَبهِ وسَعادَةِ جَدِّهِ. وإنهُ كانَ يُقالُ: إذا طلَبَ اثْنانَ أمْراً ظَفِرَ بهِ منهُما أفضلُهُما مُروءَةً، فإن اعتَدَلاَ في المُروءة فأشدُّهُما عزْماً، فإن استَوَيا في العَزْمِ فأسْعَدُهُما جَدّاً.

وكانَ يُقالُ: مَنْ حارَبَ الملكَ الحازِمَ الأرِيبَ المُتضرِّعَ[٢] الذي لا تُبْطِرُهُ[٣] السَّرّاءُ ولا تُدْهشُه الضَّرّاءُ كانَ هوَ داعيَ الحَتْفِ إلى نفْسِهِ، ولا سِيَّما إذا كانَ ذلكَ أيُّها الملكُ العالِمُ بفُرُوضِ الأعمالِ ومَواضِعِ الشِّدَّة واللّينِ والغضَبِ والرِّضَى والمُعاجَلةِ والأناةِ، النَّاظِرُ في أمرِ يوْمِهِ وغَدِهِ وعواقِبِ أعمالهِ، قالَ الملكُ للغُرابِ: بلْ برأيِكَ وعَقلِكَ ونَصيحتِكَ ويُمْنِ طالِعِكَ كانَ ذلكَ فإنَّ رأيَ الرَّجُلِ الوَاحدِ العاقلِ الحازِمِ أبلَغُ في هَلاكِ العدُوِّ منَ الجنُودِ الكثيرَة منْ ذَوِي الْبأسِ والنَّجْدَةِ والعَدَدِ والعُدَّةِ، وإنَّ منْ عَجيبِ أمْرِكَ عنْدِي طُولَ لُبْثِكَ بينَ ظَهْرَانَيِ البُومِ تَسْمَعُ الكلامُ الغَليظَ ثمَّ لمْ تَسْقطْ بينهنَّ بكلمَةٍ. قال الغُرابُ: لمْ أزَلْ مُتَمَسِّكاً بأدبكَ أيها الملكُ أصْحَبُ البَعِيدَ والقَرِيبَ بالرِّفْقِ واللِّينِ والمُبالَغةِ والأنَاةِ.

قال الملكُ: أصبَحْتُ وقدْ وَجدْتُكَ صاحبَ العمَلِ ووَجدْتُ غيرَكَ منَ الوُزراءِ أصْحابَ أقاويلٍ ليْسَ لها عاقبةٌ حَميدَةٌ، فقدْ مَنَّ الله علينا بكَ مِنَّةً لمْ نكُنْ قبْلَها نجِدُ لَذَّةَ الطَّعامِ والشَّرابِ ولا النَّوْمِ ولا القَرارِ، وكانَ يُقالُ: لا

(١) الصرعة: الحالة.

(٢) الأريب: العاقل. والمتضرع الحسن الاحتيال.

(٣) البطر: الطغيان بالنعمة.

يجِدُ المرِيضُ لَذَّةَ الطَّعامِ والنَّوْمِ حتى يَبرَأَ، ولا الرَّجُلُ الشَّرِهُ الذي أطْمعَهُ سُلْطانُه في مالٍ وعمَلٍ في يدِهِ حتى يُنْجِزَهُ لهُ، ولا الرَّجُلُ الذي قدْ ألحَّ عليْهِ عدُوُّه وهوَ يَخافُه صَباحاً ومَساءً حتى يَستَريحَ منهُ قلْبُه، ومَنْ وَضَعَ الحِمْلَ الثَّقِيلَ عنْ يدِهِ أراحَ نفْسَهُ ومَنْ أمِنَ عدُوَّهُ ثَلَجَ(١) صدْرُهُ.

قال الغُرابُ: أسألُ الله الذِي أهلَكَ عدُوَّكَ أنْ يُمتِّعكَ بِسُلْطانِكَ وأنْ يجْعَلَ في ذلكَ صَلاحَ رَعِيَّتكَ، ويُشْرِكَهمْ في قُرَّة العيْنِ(٢) بمُلْككَ، فإنّ الملِكَ إذا لمْ يكُنْ في مُلْكهِ قُرَّةَ عُيونِ رعيَّتهِ فمثَلُهُ مثَلُ زَنَمةِ العَنْزِ(٣) التي يَمُصُّها الجَدْيُ وهوَ يَحْسَبُها حلَمةَ الضَّرْعِ فلا يُصادِفُ فيها خيراً.

قال الملكُ: أيها الوزيرُ الصَّالحُ كيْفَ كانتْ سيرَةُ البُومِ ومَلكِها في حُروبِها وفيما كانتْ فيهِ منْ أمُورِها، قال الغُرابُ: كانتْ سِيرَتُه سيرَةَ بَطَرٍ وأشَرٍ وخُيَلاءَ وعَجْزٍ وفَخْرٍ معَ ما فيهِ منَ الصِّفاتِ الذَّمِيمَةِ، وكلُّ أصْحابهِ ووُزَارئِهِ شَبيهٌ بهِ إلا الْوزيرَ الذي كانَ يُشيرُ عليْهِ بقَتْلي فإنهُ كانَ حكيماً أرِيباً فيْلَسُوفاً حازِماً قَلَّما يُرَى مثْلُهُ في عُلوِّ الهِمّةِ وكمالِ العقْلِ وجَوْدَةِ الرَّأيِ. قال الملكُ: وأيُّ خَصْلةٍ رأيْتَ منْهُ كانتْ أدَلَّ على عقْلِهِ؟ قالَ: خَلَّتانِ... إحدَاهُما رأيُهُ في قَتْلي والأخرَى أنّهُ لمْ يكُنْ يكتُمُ صاحِبَهُ نَصِيحتَهُ وإنِ اسْتقلَّها، ولمْ يكنْ كلامُهُ كلامَ عُنْفٍ وقَسْوَةٍ ولكنّهُ كلامُ رِفْقٍ ولِينٍ حتى إنهُ رُبّما أخبرَهُ بِبَعْضِ عيُوبهِ ولا يُصَرِّحُ بحقيقةِ الحالِ بلْ يَضْرِبُ لهُ الأمْثالَ ويُحدِّثُهُ بِعَيْبِ غيرِهِ فيَعْرِفُ عيْبَهُ فلا يَجِدُ ملِكهُ إلى الغَضَبِ عليهِ سبيلاً.

وكانَ ممَّا سَمِعْته يقولُ لملكهِ أنهُ قالَ: لا يَنْبغي للْملكِ أن يَغْفُلَ عنْ أمْرِه فإنّه أمْرٌ جَسيمٌ لا يَظْفَرُ بهِ منَ النَّاسِ إلاّ قليلٌ ولا يُدْرَكُ إلاّ بالحزْمِ،

ثلج صدره: اطمأن.

(١) قرة العين: تعني: السرور.

(٢) زنمة العنز: قطعة لحم تتدلى من حلقها.

(٣)

فإنَّ المُلْكَ عَزِيزٌ فَمنْ ظَفِرَ بهِ فلْيُحْسِنْ حِفْظَهُ وتَحْصينَهُ، فإنهُ قدْ قيلَ: إنهُ في قِلةِ بَقائهِ بمنزِلةِ قِلةِ بَقاءِ الظِّلِّ عنْ ورَقِ النيْلُوفَرِ[١]، وهوَ في خِفّةِ زَوالهِ وسُرْعةِ إقْبالهِ وإدْبارِهِ كالرِّيحِ، وفي قلةِ ثَباتهِ كاللّبيبِ معَ اللّئامِ، وفي سُرْعةِ اضْمِحْلاَلهِ كَحَبابِ الماءِ[٢] منَ وَقْعِ المطَرِ.

فهذا مَثَلُ أهلِ العَدَاوةِ الذينَ لا ينْبغي أنْ يُغْترَّ بهمْ وإنْ هُمْ أظهَرُوا تَوَدُّداً وتضَرُّعاً.

(١) ضرب من الرياحين.

(٢) حَبَابُ الماء: الفقاعات التي تعلوه.